سلسلة الفتوحات الإسلامية

موقعة اليرموك

بقلم

محمد ثابت توفيق

مكتبة العبيكان

obeikandl.com

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

لجنة التأليف والترجمة بمكتبة العبيكان

موقعة اليرموك.ـ الرياض.

٥١ص ؛ ١٧x٢٢سم (سلسلة الفتوحات الإسلامية ؛ ٦)

ردمك: ٦-٩٣٢-٢٠-٩٩٦٠

١ ـ معركة اليرموك أ ـ العنوان ب ـ السلسلة

ديوي ٩٥٣,٠٢٣ ٢٢/١١١٨

ردمك: ٦-٩٣٢-٢٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٢/١١١٨

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ / ٢٠٠١ م

حقوق الطبع والنشر محفوظة

الناشـــــر

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص. ب: ٦٢٨٠٧ الرمز: ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

obeikandl.com

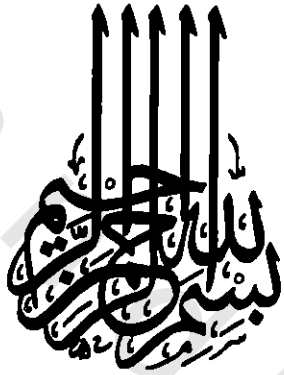

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

بداية معارك الروم مع المسلمين

وفد من المسلمين إلى ذات الطلح:

كان الرسُل والأنبياء قبل بعثة نبينا ﷺ يُبعثون إلى قومهم فقط؛ أما محمد ﷺ آخر الأنبياء والرسل فقد كلفه الله بإيصال دعوته إلى جميع الناس، حيث كانت دعوته عامة تخطت حدود مكة المكرمة التي ولد ونشأ فيها.

ففي المدينة المنورة اتسعت الدعوة إلى الإسلام، وازداد المؤمنون بعد الهجرة؛ ولحرصه ﷺ على تبليغ دعوة ربه إلى جميع الناس الذين يعيشون في زمانه، أرسل وفداً من الصحابة إلى مكان يُسمى «ذات الطلح» ليدعو أهله إلى الإسلام، ولما كان أهل «ذات الطلح» يقيمون قريباً من الشام حيث يحكم ويتصرف الروم – إحدى القوتين العظيمتين في ذلك الوقت – بهم، فقد اعتدوا على أصحاب الرسول ﷺ فقتلوهم؛ رغم معرفتهم بأنهم رسل مكلفون بنقل رسالة؛ ورغم أن العرب من غير المسلمين كان من عاداتهم عدم قتل الرسل؛ وكان عدد الشهداء من أصحاب الرسول ﷺ خمسة عشر رجلاً لم ينج منهم إلا واحد فقط، تركوه ليبلغ الرسول ﷺ بما حدث لأصحابه.

استشهاد رسول آخر من الصحابة:

فأرسل الرسول ﷺ بعدها صحابياً آخر برسالة إلى هِرَقْلَ ملك الروم، فما كان من شرحبيل بن عمرو إلا أن قتله وهو في الطريق، وشرحبيل هذا القاتل كان من الغساسنة، وهم قبيلة من العرب؛ لكنهم يقيمون على حدود تلك القوة العظمى ويحتمون بها؛ ولذلك يتجبرون.

الرسول ﷺ يجهز جيشاً رداً على مقتل أصحابه:

كان مقتل أصحاب الرسول ﷺ في السنة الثامنة من هجرته إلى المدينة المنورة؛ قبل فتح مكة؛ لكن المسلمين في ذلك الوقت قوة لا يستهان بها، ولا يقدر أحد التقليل من أمرهم، أو الاعتداء عليهم، فلما حدث هذان الحدثان عقب بعضهما، وفي مكانين قريبين، وغير بعيدين عن قبائل العرب التي أسلمت في شبه الجزيرة العربية، كان لابد للرسول ﷺ أن يؤدب هؤلاء المعتدين. فجهز جيشاً لتأديبهم؛ والثأر لأصحابه؛ ورغم أن عدد الجيش لم يتجاوز ثلاثة آلاف رجل؛ إلا أنهم من المسلمين الأشداء، وفيهم خالد بن الوليد البطل العربي المعروف.

مفاجأة غير سارة لجيش المسلمين:

عيَّن الرسول ﷺ زيد بن حارثة كقائد للجيش؛ فإذا أصيب فقيادة

الجيش لجعفر بن أبي طالب، فإذا أصيب جعفر فليكن عبدالله بن رواحة، وحدث ما توقعه الرسول ﷺ؛ إذ جهز الروم مئة ألف جندي لقتال المسلمين، أي أكثر من ثلاثين ضعفاً لعدد المسلمين، ورغم ذلك لم يتراجع المسلمون، ولم يخافوا من لقاء عدوهم، وهم الذين يعلمون أن النصر من عند الله واستشهد زيد بن حارثة، وتولى القيادة بعده جعفر بن أبي طالب فقاتل بشجاعة مثل زيد حتى استشهد؛ فتولى القيادة عبدالله بن رواحة فقاتل حتى استشهد.

وصار المسلمون في موقف شديد؛ وعدوهم يزيد عليهم عشرات المرات، وأنصاره من قبائل العرب من غسان وغيرها حوله يساعدونه، وهم أصحاب المكان، يعرفونه جيداً؛ وقد استشهد القواد الثلاث الذين حدَّدهم الرسول ﷺ فقال ثابت بن أقرم:

« يا معشر المسلمين، اتفقوا على رجل منكم كي يكون قائدكم، فقالوا: « أنت ».

ولأنه يعلم أمانة القيادة؛ وأنه سيُسأل عن موقفه هذا أمام الله فقد أجابهم:

« ما أنا بفاعل ».

أي أنه لا يريدها، وهو لا يجد في نفسه القدرة على الخروج بالمسلمين من هذا الموقف الشديد، فاتفق المسلمون على أن يكون قائدهم خالد بن الوليد، ورغم حداثة إسلامه إلا أنه البطل المحارب القوي الذي يعرفه الناس جميعاً[1].

موقف خالد:

ورغم تواضع خالد ورفضه القيادة في البداية، وهو يرى نفسه مقبلاً على قيادة جيش فيه من المهاجرين والأنصار الكثيرين من الذين سبقوه إلى الإسلام إلا أن المسلمين أصرُّوا فتولى قيادة الجيش كبداية لحرب طويلة شديدة مع هؤلاء المتجبرين، حرب ستمتد لأعوام طويلة في حياة الرسول ﷺ، وبعد وفاته كما سنرى[2]. وكان الموقف في مؤتة لا يحتمل، فشهداء المسلمين كثيرون، ولو استمرت الحرب فستكون نتيجتها على غير ما يحبون، فما كان أمام خالد البطل سوى حل واحد هو الانسحاب من أرض المعركة بأقل الخسائر؛ وأطلق على خالد بن الوليد لقب: سيف الله المسلول. أي، أن خالداً سيفٌ من سيوف الله التي أشهرَها على أعدائه.

(١) سيرة ابن هشام – جـ ٤ – ص ١٤ – مكتبة شقرون.

(٢) رجال حول الرسول – خالد محمد خالد – ص ٣٠٩ – دار الجيل.

غزوة تبوك:

ورغم إعجاب الرسول ﷺ بخطة خالد؛ إلا أنه حزن لوفاة أصحابه، وما إن فتح رسول الله ﷺ مكة حتى سار في السنة التاسعة من الهجرة بنفسه في أعظم جيش شهده المسلمون في حياتهم(١)، وكان ذلك في وقت اشتدت فيه الحرارة، وتعود الناس قطف الثمار فيه، وبالتالي الراحة، وأصرَّ الرسول ﷺ على أن يخرج حتى حدود الروم فيقيم؛ رداً على ما فعلوه في مؤتة، وكان من عادة الرسول ﷺ ألاَّ يخبر أصحابه بالمكان الذي يستعدون للذهاب إليه، إلا أنه في هذه المعركة أخبرهم لعلمه بأهميتها، فمنهم الذي اعتذر عن الخروج، ومنهم الذي لحق بجيش المسلمين بعد خروجه مثل أبي خيثمة وعمير بن وهب، أما المنافقون ضعاف الإيمان فقد أخذوا يُخوِّفون المؤمنين، ويقولون لهم:

«أتحسبون جلاد – أي: محاربة – بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟».

إنهم يقولون بأن المعركة القادمة معركة خطيرة فهي ليست كأي معركة عرفها المسلمون، فإنهم مقبلون اليوم على حرب الروم، والروم قوة عظمى، وبلغ حديثهم هذا رسول الله ﷺ الذي كان يثق في نصر الله له.

(١) عبقرية خالد – عباس محمود العقاد – ص ٥٩.

الصلح:

ولم تؤثر كلمات المنافقين في المسلمين الذين خرجوا خلف رسول الله ﷺ مؤمنين بأن النصر من عند الله وحده يأتي على قدر عزمهم وصدقهم، ورغبتهم في نصرة دينهم، واستعدادهم للتضحية بأنفسهم وما يملكون في سبيل الله، وكما نصرهم الله من قبل فقد نصرهم الله في هذا اليوم، إذ خاف الروم لقاءهم، فلم يخرجوا إليهم، وعقد الرسول ﷺ صلحاً مع صاحب أيلة، وهو حاكم المكان الذي أقام فيه الرسول ﷺ، واسمه: يحنة بن رؤية، على أن يدفع الجزية للمسلمين – وهو مبلغ من المال، يأخذه المسلمون مقابل دفاعهم عن الذين يدفعونه، وعن بلادهم طالما أنهم لا يرغبون الدخول في الإسلام، ولم يعلنوا معاداتهم للمسلمين –.

كذلك اختار الرسول ﷺ خالد بن الوليد كي يسير إلى أكيدر دومة تأكيداً لانسحاب عدوه من أمامه، ذهب خالد وعدة مئات من جنود المسلمين، فأسروا ذلك الرجل وجاؤوا به إلى الرسول ﷺ، فصالحه أيضاً على أن يدفع الجزية، وأقام ﷺ بجيشه عشرة أيام لم يتحرك، ولم يخرج الروم لقتاله(١).

(١) سيرة هشام – جـ ٤ – ص ١٢٦.

الاستعداد لمعركة جديدة:

ورغم عودة الرسول ﷺ، وجيش المسلمين من تبوك منتصرين دون حرب، ورغم خوف الروم الشديد، وعدم قدرتهم على ملاقاته – عليه الصلاة والسلام –، وهم إحدى قوتين تحكمان العالم، إلاَّ أن الرسول ﷺ انتظر عاماً آخر، فلما جاء العام الحادي عشر للهجرة أمر المسلمين بأن يستعدوا للذهاب ثانية إلى الشام وكلف أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنه الذي كان أبوه أول قائد للمسلمين استشهد في سرية مؤتة – بأن يسير إلى حدودهم، فيدخل فيها بخيله معلناً استعداد المسلمين لمقاتلة الروم ثانية؛ حتى تكون العزة في الأرض لله ولرسوله وللمسلمين(١).

إلا أن مرض الرسول ﷺ الشديد المفاجئ حال دون خروج الجيش، فما إن علم أسامة رضي الله عنه باشتداد مرض الرسول ﷺ حتى عاد بالجيش – الذي كان مُعَسكراً خارج المدينة.

(١) تاريخ الطبري – حـ٣ – ص ١٨٤ – طبعة دار المعارف.

obeikandl.com

الفصل الثاني

أبو بكر رضي الله عنه يصمم على محاربة الروم

وشاء الله تعالى أن يتوفى النبي ﷺ وبايع المسلمون بعده أبابكر الصديق ليكون خليفةً لرسول الله ﷺ. وارتد كثير من ضعاف الإيمان عندما سمعوا بوفاة الرسول ﷺ، فما كان من أبي بكر إلا أن أعلن الحرب عليهم، وأرسل الجيوش إليهم، وتحدث المسلمون بشأن جيش أسامة هل يذهب لمقاتلة الروم كما أراد رسول الله؟ أم سينضم إلى الجيش الذي سوف يحارب المرتدين؟ عندها كان موقف أبي بكر الثابت، حيث بين أنه يسير على خُطى الرسول ﷺ فقال:

« أنفذوا بعث أسامة، فوالله لوخطفتني الذئاب لأنفذنَّه كما أمر رسول الله؛ وما كنتُ لأرد قضاء قضاه ».

صحة رأي أبو بكر:

كان رأي أبي بكر صحيحاً؛ لأنه يسير على طريق الرسول ﷺ، ولأنه قد علم أمراً آخر إذ إن قبائل المرتدين التي مَرَّ بها أسامة بجيشه، وهو في طريقه إلى الشام لم تكد تبصر هذا الجيش الكبير حتى عاد إليها عقلها، وقالوا لبعضهم: إذا كان أبو بكر قد أرسل هذا الجيش الكبير إلى الروم فماذا أعد لنا؟

حال الروم:

كان الروم أهل كتاب إذ إنهم من النصارى الذين حرفوا دينهم ، فابتعدوا به عن الصواب، وحرصوا على ملذاتهم، وشهواتهم، وادعو أن دينهم هو الذي يأمرهم بذلك ، كما أنهم كانوا قد انتصروا على الفرس بعد معارك عديدة، لذلك مالوا إلى الراحة، ودخل أنفسهم بعض الغرور.

نجاح جيش أسامة في مهمته:

وبالفعل سار أسامة بجيشه في الحر الشديد، حتى وصل بعد عشرين يوماً، إلى البلقاء – المكان الذي قتل فيه أبوه زيد بن حارثة وكذلك جعفر ابن أبي طالب وعبدالله بن رواحة –، هناك أقام بجيشه فهجم على القبائل، ونشر خيل جنده، وقضى على كل الذين وقفوا أمامه من أعداء الله ورسوله، حتى حققوا النصر الذي أراده ﷺ قبل وفاته، وقد تم كل هذا بسرعة، فلم يستطع العدو مقاومته، ثم عاد أسامة إلى المدينة بجيشه.

لكن هذه الحرب لم تكن إلا لتأمين حدود المسلمين، ولم يذهب أسامة خلف الروم، فيهاجمهم في داخل بلادهم، فإن ذلك لم يكن يخطر على بال المسلمين بعد.

الفصل الثالث

حروب المسلمين مع الروم

تتابع انتصارات المسلمين:

لقد أنعم الله على المسلمين بتتابع انتصاراتهم على أعدائهم، فبعد نصر أسامة، استطاع المسلمون القضاء على جميع المرتدين في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية في أقل من عام، بل حدث ما لا يتوقعه أحد، إذ إن الخليفة المؤمن أبا بكر – في وسط حروب الردة، ومقاومة جيوشه لأولئك الخارجين عن الدين – يفكر ويتفق مع الصحابة على حرب الفرس والروم، كيف وهم في موقف صعب؟ كيف وهم يقاتلون الذين تراجعوا عن الإسلام من الذين كانوا مسلمين في عهد الرسول ﷺ ؟.

نعم. إنهم يفكرون في غزو الفرس والروم؛ لأنهم واثقين من قوة إيمانهم، وإخلاصهم، وبالتالي نصر الله لهم، أليسوا يسيرون خلف خطوات الرسول ﷺ في نشر الدين في جميع أنحاء الدنيا؟[1].

وبدأت فتوحات المسلمين في العالم من حولهم بعد فترة قليلة، واختار الخليفة أن تكون البداية في العراق ضمن إمبراطورية الفرس، وتحركت خيول

(١) عبقرية خالد – عباس محمود العقاد – ص ٩٨.

المسلمين، بقيادة خالد بن الوليد، فحققت النصر في عشرة مواقع متتالية، بداية من ذات السلاسل وحتى موقعة الفرات.

كل هذه الانتصارات على يديه في خلال عام واحد هو العام الثاني عشر من هجرة الرسول ﷺ. وقد أتعب جيش خالد الفرسَ وأعياهم، فلم يستطيعوا ثباتاً أمامه، وهم القوة العظمى، وهو الذي يحاربهم داخل أراضيهم، ولم يبق أمامه إلا أن يدخل المدائن مقر حكم كسرى.

أبو بكر يوجه الجيوش لحرب الروم:

في نهاية السنة الثانية عشرة من الهجرة كان المرتدون قد انتهى أمرهم، وخالد بن الوليد تزداد انتصاراته في بلاد الفرس، فقرر أبو بكر بداية مرحلة جديدة في الحرب مع الروم، فإذا كان الرسول ﷺ قد بدأ الحرب معهم لحماية حدود شبه الجزيرة العربية – حيث انتشر الإسلام في حياته –وقد نجح بذلك في حياته، وأكد هذا الانتصار أسامة بن زيد بعد وفاته ﷺ، والآن وفي بداية السنة الثالثة عشرة من الهجرة يعلن أبو بكر بداية الفتوحات الإسلامية في داخل بلاد الروم، وكتب إلى أهل اليمن يدعوهم إلى هذه الفتوحات، ويبشرهم بنصر الله لهم، وهم الذين يرون ما يحققه خالد بن الوليد في بلاد الفرس، فسرعان ما استجابوا لأمر الخليفة بينما هو يجمع من

حوله من أهل مكة والمدينة لهذا الغرض أيضاً، وسارت الجيوش إلى الشام بقيادة صحابي اسمه خالد بن سعيد(١).

استعدادات الروم:

لقد ذاق الروم حرب المسلمين من قبل، إنهم يختلفون عن الفرس الذين خرجوا لمحاربة خالد بن الوليد وفي أذهانهم أنهم يحاربون جيشاً عادياً، ففاجأهم بالذي لم يخطر لهم على بال من قوة وشجاعة وثبات واستبسال في ميدان المعركة، عرف الروم كل هذا عن المسلمين، عرفوه في الثلاثة آلاف مقاتل الذين تصدوا لمئة ألف منهم، ورغم ذلك لم يهزموا، بل انسحبوا في اقتدار في مؤتة، وخافوا منهم في تبوك حينما رأوا المقابل في القبائل التي تحيط بهم من العرب وهم يتصالحون مع الرسول ﷺ، ثم ما حدث على يد أسامة بن زيد، وهم يسمعون أخبار انتصارات خالد في فارس، لذلك كان من الطبيعي ألاَّ ينتظر الروم بل يسارعون لحرب المسلمين.

اجتماع القبائل:

وبينما أبو بكر يجمع الناس كان خالد بن سعيد في مكان يسمى «تيماء»، يرى ويسمع عن تحركات الروم واستعداداتهم المكثفة للحرب،

(١) تاريخ الطبري – جـ٣ ص ٣٨٧، ٣٨٨.

فأرسل إلى الخليفة، يطلب قوات تساعده، ثم انتظر، فعلم باجتماع الروم والقبائل من بَهْراء، وكلب، وتَنُوخ، ولخم، وجُذَام، و غَسّان، وكتب خالد ابن سعيد إلى أبي بكر مرة ثانية يستأذنه في غزو الروم فسمح له وقال له:

« أقْدِمْ ولا تُحجِمْ واستنصر الله ».

خديعة الروم لخالد بن سعيد:

ولما اقترب خالد بن سعيد بجيش المسلمين من جيش الروم فوجئ بهم وقد تفرقوا تاركين منازلهم، فدخل معسكرهم، وغنم(١) كل ما فيه، وكتب إلى أبي بكر بما يحدث، فأرسل إليه أبو بكر كلمات واضحة محددة:

– « أقدم ولا تقتحمن حتى لا تُؤتى من خلفك ».

كان أمر الخليفة له، أن يتقدم من أعدائه، حتى يلاقيهم دون أن يدخل عليهم المكان بالقوة، كي لا يجيء إليه عدوه من خلفه، فترك ابن سعيد « تيماء » حيث كان قد عسكر بجيشه، وسار حتى بلغ مكاناً يُسمى « القَسْطَل »، وكان تراجع الروم خُدْعة، فلقد تركوه يتقدم، ثم أطبقوا، فهجموا عليه، بقيادة « باهانا »، فقتل جند المسلمين ، وحدث ما توقعه الخليفة وحذر منه ابن سعيد، ولم ينتظر خالد فأرسل إلى الخليفة يخبره بالأمر.

(١) الغنيمة ما ياخذ الجيش المنتصر من خيل ومتاع من الجيش المهزوم.

أبو بكر يحشد الجيوش لمحاربة الروم:

فلما وصل خبر هزيمة المسلمين في بلاد الروم إلى أبي بكر الصديق لم ينتظر، وإنما انتهز فرصة قدوم ذو الكلاع الحميري على المدينة بعد أن أدَّب المرتدين في اليمن، وأمره بأن يسير إلى الشام وكذلك عكرمة بن أبي جهل الذي كان عائداً من حرب المرتدين في تهامة والبحرين وغيرهما.

ولم يكتف أبو بكر بذلك وإنما أرسل إلى قائد ثالث هو عمرو بن العاص، وكان الرسول ﷺ قد أمره بأن يقوم على جمع صدقات عدد من القبائل، ثم تسييره إلى عُمان، فأرسل إليه يخيِّره بين عمله هذا وبين نصرة المسلمين ضد الروم، وذكره بأنه قد تولى هذا العمل عملاً بوصيته الرسول ﷺ، ثم تولاه ثانية، ولكن الظروف تستدعي أن يتوجه إلى مكان آخر، فكان مما قاله له:

« وقد أحببت أبا عبدالله – يقصد عمرو بن العاص – أن أفرغك لما هو خيرٌ لك في حياتك ومعادك منه إلا أن يكون الذين أنت فيه أحبَّ إليك »[1].

(١) تاريخ الطبري – جـ ٣ – ص ٣٨٩.

رد عمرو على خطاب أبي بكر:

وكما كان أبوبكر عظيماً في كلماته، كان عمرو بن العاص كذلك في ردِّه عليه، فهو أيضاً قد تربى في مدرسة الرسول ﷺ، فأرسل يرد عليه ويقول:

«إني سهم من سهام الإسلام، وأنت بعد الله الرامي بها، والجامع لها، فانظر أشدّها وأخشاها وأفضلها فارم به شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحي».

وكذلك أجاب الوليد بن عقبة بمثل جواب عمرو بن العاص.

سير الجيوش إلى الشام:

وسارت هذه الجيوش إلى الشام، فلما أرادت المسير، وقف فيهم أبو بكر خطيباً، يوصيهم فقال بعد أن حمد الله، وشكره:

«ألا إن لكل أمر جوامع، فمن بلغها فهي حسبه، ومَنْ عمل لله كفاه الله، عليكم بالجدِ والقصد فإن القصد أبلغ، ألا إنه لا دين لأحد لا إيمان له، ولا أجر لِمَنْ لا حِسْبة له، ولا عمل لَمْنَ لا نية له، ألا وإن في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله لما ينبغي على المسلم أن يحب أن يُخَصَّ به، هذه التجارة التي دلَّ الله عليها، ونجا بها من الخزي والندم، وألحق بها الكرامة في الدينا والآخرة»(١).

(١) الصديق أبو بكر – محمد حسنين هيكل – ص ٢٨٦.

ابتلاء جديد:

وسارت جيوش المسلمين إلى حيث أمرهم أبو بكر، وجاء الوليد بن عقبة إلى خالد بن سعيد فساعده، وكذلك دخل الحرب معه ذو الكلاع الحميري، و عكرمة بن أبي جهل. وكان من قدر الله أن هجم جيش باهان وأنصاره، فأحاطوا بالمسلمين من عدة طرق وخالد بن سعيد لا يشعر بهم، حتى قتلوا ابنه سعيد، فلما وصل الخبر إليه خرج هارباً هو وبعض أصحابه، إلا أن عكرمة بن أبي جهل ثبت في مكانه وأراد باهان وجنوده أن يتبعوا خالد بن سعيداً وبعض الجنود الذين هربوا معه، فردهم عكرمة، وأقام قريباً من الشام.(١).

وافتخر الروم بانتصارهم الثاني، وظنوا أن النصر يدوم لهم، ولم يعلموا شيئاً عن الجيوش الجديدة التي يجهزها الخليفة بقيادة شرحبيل بن حسنة العائد من أرض فارس وكذلك أمر معاوية بن أبي سفيان على جيش آخر، وهناك جيوشاً أخرى لم تشترك بعد في الحرب، هناك جيش عمرو بن العاص، وأبي عبيدة بن الجراح واقف بجيشه على حدود دمشق(٢).

أما عدد جيوش المسلمين مجتمعة فقد كان ثلاثين ألفًا، أما عدد الروم

(١) تاريخ الطبري – جـ٣ – ص ٣٩١.

(٣) الصديق ابو بكر – محمد حسنين هيكل – ص ٢٨٨.

فقد كان يقدر بمئتين وأربعين ألفًا – أي: يساوي ثمانية أضعاف المسلمين – ورغم زيادة عدد الروم فإن أبا بكر قد كتب إلى المسلمين يقول لهم:

«اجتمعوا فتكونوا عسكراً واحداً، والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين، فإنكم أعوان الله؛ والله ناصرٌ مَنْ نصره، وخاذل من كفره، ولن يؤتى مثلكم من قلة..».

إنه يعلن أنهم لن يهزموا من قلة العدد؟ وهم أبطال بدر؟ وفيهم من عظماء الصحابة الكثيرون، فإن فيهم ألفًا من صحابة الرسول ﷺ، وفيهم أهل بدر الذين أمدَّهم الله بالملائكة، وقال فيهم:

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾.(١)

لذلك يكمل أبو بكر فيقول:

«وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب، فاحترسوا من الذّنوب، واجتمعوا باليرموك متساندين، وليصل كلّ رجل منكم أصحابه»(٢).

(١) الصديق أبوبكر – محمد حسنين هيكل – ص ٢٨٦.

(٢) تاريخ الطبري – جـ٣ – ص ٢٩٣.

موقف أبي بكر من خالد بن سعيد:

أما ابن سعيد القائد الذي هرب من ميدان المعركة، فقد كتب أبو بكر أنه لا يريد أن يدخل عليه المدينة، ثم سمح له بدخولها أخيراً، وعاتبه عتاباً قاسياً.

وأفاقَ الروم من غفوتهم، ومن سكرة النصر الثاني على تصميم بقية القادة من المسلمين على النصر، وجيش عكرمة يحميهم، وأحس الروم بذلك، فخافوا خوفاً شديداً حتى إنهم كتبوا إلى هِرَقْلَ كبيرهم من شدة الخوف، فكان من شدة خوفه هو الآخر أن أقام بمدينة حمص يجمع الجنود والعساكر، وأراد أن يلهي المسلمين بكثرة الجنود الذين يلاقون كل جيش بعيداً عن الآخر، وهو ما أفسده عليه أبو بكر.

تحديد قائد الجيشين:

ونهر اليرموك الذي أمر أبو بكر المسلمين أن يقيموا عنده ينبع من جبال اسمها «حوران» وينحدر سريع التيار، وعلى بعد ثلاثين أو أربعين ميلاً من ملتقى اليرموك بنهر الأردن تقع «واقصة» في منبطح فسيح من الأرض، تحيط به من ثلاث جهات جبال مرتفعة جداً وقد اختار الروم هذا المكان الفسيح المتساوي معسكراً يجتمع فيه جنودهم لما رأوا أنه يتسع لهم، وكانوا

على كثرتهم – أغبياء غباء شديداً – إذ إن المسلمين عبروا النهر إلى جهة اليمين، فلم يبق للروم طريق – غير الثلاثة طرق من الجبال التي تحيط بهم – سوى طريق المسلمين، فاستبشر عمرو بن العاص بهذا الموقف وقال:

« أيها الناس أبشروا! حُصرت والله الروم، وقلَّما جاء محصور بخير».

بعبقريته الحربية أدرك عمرو بن العاص أن الروم الذين أحيط بهم بثلاث جوانب من الجبال، وبالمسلمين من الجانب الوحيد الذي يعد بمنزلة فتحة يمكنهم الخروج منها، سوف يُهزمون.

أما هرقل قائد الروم فقد خاف خوفاً شديداً، وأراد الحفاظ على مُلْكه بأية طريقة؛ لذلك عين على جيشه أخاه، ذلك الذي انتصر على الفرس من قبل، وأعلن في جيشه أن يستبشر، فإن « باهان » القائد الذي هزم المسلمين مرتين، قادم إليهم في « الواقصة » على ضفاف اليرموك.

ورأى المسلمون جيوش الروم فوجدوها شديدة النظام، وهرقل بنفسه قد عسكر في حمص قريباً منهم.

وأخذ أبو بكر الصديق يفكر في اختيار قائد جيش المسلمين، وبعد تفكير وجد أن المسلمين لا ينصرون بكثرة عددهم، ولكن بإيمانهم، وحكمة قيادتهم، فراح يبحث عن قائد ماهر للجيش، فأبو عبيدة بن الجراح على

مقدرته الحربية به رقة في قلبه، وعمرو بن العاص الذي طلب القيادة من عمر ابن الخطاب[١] قادر على الحرب، لكنه يفكر بعض الوقت قبل أن يتقدم، وعكرمة مقاتل شجاع لكن هل يقدرُ على القيادة في الحرب جيداً؟. إذن فَمَنْ يقود جيوش المسلمين؟[٢].

أخذ أبو بكر يفكر جيداً.

خالد .. سيف الله المسلول:

إنه من يصلح لهذا الموقف الخطير، فقد استطاع مواجهة الروم قبل ذلك وانسحب من أمامهم بنجاح، ولم يكن عمر إسلامه في ذلك الوقت يزيد على شهرين أو ثلاثة؟ وهو الذي جعله الرسول ﷺ بعد ذلك في مقدمة صفوف جيشه الذاهب لمحاربة اليهود في حُنَين، وهو أيضاً قائد الجناح الأيمن للمسلمين[٣] خلف الرسول ﷺ في فتح مكة، وهو العبقري الذي أجبر الفرس على حربه في المكان المفضل لديه، في الصحراء[٤] رغم أنه في بلادهم – وهو الذي انتصر عليهم عشرة مرات أو يزيد، وما كان معه غير

(١) عمرو بن العاص – محمد علي قطب – ص ٣٢.

(٢) الصديق أبو بكر – محمد حسنين هيكل – ص ٢٩١.

(٣) خالد بن الوليد – محمد علي قطب – ص ٢٥ – دار الدعوة.

(٤) الانتصارات العربية – المشير أبو غزالة – ص ١٤٧.

جيشه الذي حارب به المرتدين وهو غير كامل وما هُزِم مرة واحدة[1]!

وهل من أحد غيره؟ إنه الذي أسماه الرسول ﷺ «سيف الله المسلول» خالد بن الوليد.

لذلك قال أبو بكر وهو الرجل العالم بالرجال:

«خالد لها».

إنه خالد القادر على المواجهة، ثم كانت مقولة أبي بكر الثانية شهادة عظيمة، بل لا مثيل لها في حق خالد ابن الوليد:

«والله لأشفين وساوسهم بخالد».

فإذا كانوا يعانون من الوساوس الشديدة، لا يقدرون على مقابلة المسلمين وحربهم، فإن خالداً ذلك الذي سوف يشفيهم من هذه الوساوس ويجبرهم على مقابلة المسلمين، يجبرهم على الدخول في معركة سوف يهزمون فيها.

سرعة خالد في الوصول إلى أرض المعركة:

وصل أمر الخليفة إلى سيف الله المسلول، فما كان له أن يتأخر، وقد دعي

(١) الصديق أبو بكر – محمد حسنين هيكل – ص ٢٨٧.

إلى ساحة المعركة، وبينه وبين الشام بين خمس مئة وست مئة ميل، مسافة كبيرة، ومعه عشرة آلاف مسلم، أمامهم أربع طرق، عليه أن يختار المناسب منها، والمناسب يساوي أقربها إلى المسلمين في الشام. ولكن الطريق القريب قليل الماء والعشب، وهو مخيف لأنه لا أحد يسير فيه. والدليل – الرجل الذي يعرف الطرق جيداً – قد قال عنه:

«إنك لن تطيق السير فيه».

يخبره باستحالة أن يمضي فيه، لخوفه على الجنود من العطش الشديد الذي يؤدي إلى الموت؛ فيجيبه خالد:

ويحك؛ إنه والله ليس لي بد من ذلك.

يخبره أنه لا مهرب أمامه من ذلك الطريق الخطر، وقطع خالد هذه المسافة في ثمانية عشر يوماً فقط، لأنه سار مسيرة يومين في يوم حتى وصل إلى أرض المعركة(١).

خطبة خالد في جيش المسلمين:

وبعدما وصل خالد إلى اليرموك أخذ يحسب للحرب حساباً دقيقاً، بل إنه أعلن – وهو القائد المكلف بقيادة الجيوش من ناحية الخليفة، وهو الأدرى

(١) رجال حول الرسول – خالد محمد خالد – ص ٣١٨.

بنفوس القادة من حوله – أن القيادة له اليوم، وغداً لقائد آخر، وبعد غد لآخر، وهكذا، إنه حريص على رضى نفس أصحابه[1]، ثم يقف في الجيش كله خطيباً، محمساً له قائلاً بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«إن هذا يومٌ من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم»[1].

إنه إخلاص العمل لله وحده، وهل أدلُّ على إخلاص خالد عمَلَه لله من إعلانه أن قيادة الجيوش لن تكون طوال أيام المعركة له، وأن كل قائد سوف يتولى القيادة يوماً، مع أن أمر الخليفة كان محدداً بأن يكون القائد خالد بن الوليد، ويجيء خالد فيعلن عن رغبته في قيادة الجيوش اليوم فقط، ثم يقودها قائد آخر غداً، وثالث بعد غد، ذلك هو الإخلاص في أسمى معانيه، ذلك الذي لم تسمع عنه الدنيا من قبل؛ إنه إخلاص المسلمين.

(١) عبقرية خالد – عباس محمود العقاد – ص ١١٣، ص ١١٤، ١١٥.

الاستعداد للمعركة

تقسيم خالد للجيوش:

وافق أمراء الجيوش على أن يكون قائدهم اليوم خالد، وهم يرون أن المعركة سوف تطول لأيام عديدة، وبخاصة عندما رأوا الروم وقد استعدوا لقتال المسلمين في نظام دقيق لم يسمع به أحدٌ من قبل هذه[1].

ولأن قائد المعركة هو خالد فإنه قد نظم جيشه نظاماً شديداً لا يقل عن نظام جيش الروم؛ حتى لقد قال الرواة إن تنظيم خالد لجيشه لم يعرفه أحد، إن خالداً عبقري الحرب هذه المرة لم ينظم جيشه قبل أن يطلع على نظام جيش العدو، وهو القائد العظيم فقد فهم نظام جيش العدو جيداً، ثم وقف خطيباً في جيشه فقال:

«إن عدوكم قد كثر وطغى وليس من التَّعْبية – تنظيم الجيش – تعبية أكثر في رأي العين من الكراديس».

يقول لهم خالد هذه المرة السر الذي يعتمد عليه الروم ويظنون أنهم سوف يحققون به النصر على المسلمين، وهو تنظيم الجيوش الكثيرة، بحيث تبدو لأعين الروم أكثر، إنه يرد كيدهم على أنفسهم، فينظم الجيش على

(١) تاريخ الطبري – جـ ٣ – ص ٣٩٦.

هيئة مجموعات عظيمة العدد، فعدد كل مجموعة ألف فارس من المسلمين، ويجعل عدد هذه المجموعات – التي كانت تُسمى بـ« الكراديس » – بين ستة وثلاثين مجموعة إلى أربعين، ثم هو يجعل قائداً عظيماً شجاعاً على كل مجموعة.

قيادة الكراديس:

ولم يكتف بذلك، فليس كافيًا من وجهة نظره أن يكون لكل ألف من المقاتلين قائد، بل يجعل هذه الكراديس على ثلاثة أقسام، الميمنة، وهم المقاتلون على يمين الجيش، والميسرة وهم المقاتلون على الاتجاه الآخر، والقلب وهم المقاتلون في وسط الجيش، ويوزع الكراديس(*) على الجهات الثلاثة في نظام دقيق، ثم يختار قائداً واحداً لكل جهة من جهات الجيش، يأخذ الأمر من خالد، على أن يكون هذا القائد من الأشداء في إيمانهم وقوتهم البدنية؛ لذلك جعل على كراديس القلب أبا عبيدة بن الجراح، وهو الصحابي العظيم الذي سماه الرسول ﷺ بـ« أمين هذه الأمة » وجعل على كراديس الميمنة عمرو ابن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة، أما كراديس الميسرة فقد عيَّن عليها يزيد بن أبي سفيان.

(*) الكردوس: مفرد كراديس، مجموعة من الجيش تتكون من أشجع الفرسان، تنتظم كل منها مع الأخرى في مكانها بنظام محدد فيكونون الجيش.

وكان من قواد الكراديس المجموعات أبطال عظام من أمثال القعقاع بن عمرو بطل معركة ذات السلاسل مع الفرس، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان ابن أمية، وغيرهم(١).

عدد جيش المسلمين الحقيقي:

إن المعركة القادمة معركة عظيمة، إنها مع الروم وهم ليسوا أحد القوتين العظيمتين في العالم في ذلك الوقت فقط، بل إنهم الذين هزموا القوة الأخرى، إنهم أضخم قوى العالم في ذلك الوقت، ولقد بدأت حروبهم مع المسلمين مبكرة، وها هي الفرصة قد واتت المسلمين، جاءت إليهم لتأديب هؤلاء المتجبرين الذي قتلوا رسول رسول الله ﷺ، وتحكموا فظلموا الناس بقوتهم، ها هم أتباع الرسول ﷺ وفيهم مئة ممن شهدوا بدراً؛ وألف من صحابته، في ثلاثين ألفًا، والروم في مئتين وأربعين ألفاً، ولكن قلة عدد المسلمين لن تكون عائقاً لهم ومانعاً لهم من دخول المعركة وقد وعدهم الله بالنصر إن هم صبروا. قال تعالى: ﴿**إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾. هكذا علَّم الله المسلمين، ولذلك وثقوا في نصره في معركة من أخطر المعارك في تاريخ الإسلام، ولذلك رد خالدٌ على الرجل الذي قال:

(١) الصديق أبو بكر – محمد حسنين هيكل – ص ٣٠٣.

« ما أكثر الروم، وأقل المسلمين! ».

فأجابه خالد على الفور:

– « بل ما أقلَّ الروم وأكثر المسلمين! إنما تكثر الجنود بالنصر، وتقل بالخذلان؛ لا بعدد الرجال ».

كلمات حق تنساب من فم خالد، فالحقيقة أن الجيوش تكثر بنصر الله، وتقل بالفشل. ويكمل خالد:

« والله، لوددت أن الأشقر – فرسه – براء من توجيه – مصاب بمرض في قدمه لا يستطيع منه تحركاً – وأنهم قد أضْعَفُوا في العدد – ازدادوا عدداً ».

أبو سفيان بن حرب في مهمة خاصة:

ولأنه خالد العبقري فإنه لم يكتف بكل هذا الإعداد للمسلمين؛ بل عهد إلى أبي سفيان وهو واحد من الصحابة الذي أسلموا يوم فتح مكة، وكانوا من سادة قريش في الجاهلية، بأن يتنقل بين المسلمين محمساً لهم، وناشراً روح القتال، والسعي لتحقيق النصر في نفوسهم، فصار يتنقل بينهم وهو يقول:

« الله .. الله! إنكم المدافعون عن العرب وأنصار الإسلام »

«إنكم المدافعون عن الإسلام وإنهم أنصار الشرك، اللهم إن هذا يوم من أيامك! أنزل نصرك على عبادك!».

إنه يحمسهم فيذكرهم بالله في البداية، ثم يذكرهم بأنهم أشراف العرب الذين يدافعون عن الإسلام، وأن عدوهم من المدافعين عن الروم من المشركين على الباطل ويدعو الله بدعاء خالد القائد: هذا يوم من أيامه، وهو يرجو أن ينزل على المسلمين فيه النصر.

وسرت هذه الكلمات بين المسلمين المستعدين للقتال، فأخذوا يتحرقون شوقاً للقاء عدوهم ومواجهته، والقضاء عليه(١).

استعداد النساء للقيام بدورهن في الحرب:

لم يكتف خالد بكل هذه الاستعدادات للحرب، وأخذ يفكر طويلاً، إن مشهد جيش الروم الكثير قد بعث الرعب في بعض نفوس المسلمين وبخاصة أولئك الحديثي العهد به، الذي أسلموا منذ فترة قليلة – فأدرك أن الثبات ضروري للمسلمين مهما حدث، وخاف إن اشتدت الحرب أن يهرب عدد قليل جداً من ضعاف الإيمان، فيؤثر ذلك على المقاتلين؛ لذلك ولأول مرة في حروب المسلمين، يستدعي خالد نساء المسلمين وأعلن عليهن في حزم شديد قراره الحازم:

(١) الصِّدِّيق أبو بكر – محمد حسنين هيكل – ص ٣٠٤.

– «مَنْ يُوَلي هاربًا، فاقْتُلْنَه».

وسلمهن سيوفاً، وجعل لهن مكاناً خلف صفوف المسلمين، وكانت لفتة بارعة منه، وتعظيم لدور المرأة المسلمة، فهي قادرة على الاشتراك في الحرب، فهي خلف الصفوف ترد من تحدثه نفسه بغير قتال الأعداء.

obeikandl.com

الفصل الرابع

المعركة

بداية المعركة:

وازدادت حماسة الجنود من الفريقين، وأخذ المسلمون يرددون الأراجيز – وهي المقطوعات الشعرية القليلة الأبيات –، ثم دار القتال، واشتبك الجيشان في قوة، وبينما هم على ذلك إذ جاء من المدينة المنورة فارس من المسلمين يحمل رسالة، فأخذوه، وأخذوا يسألونه عن الأمر، فأخبرهم بأن هناك جيشاً مساعداً في الطريق إليهم؛ ولم يعلمهم بما حدث..

حدث عظيم:

كان من ذكاء الرسول القادم من المدينة أنه لم يخبر أحداً من المسلمين بما جاء في الرسالة، فلقد قدر الله أن يتوفى أبو بكر الصديق الخليفة في هذا الموقف الشديد، والمسلمون قد بدؤوا في قتال الروم، فإذا ما علموا بوفاة الخليفة فقد يؤثر هذا عليهم، وبخاصة أن الخليفة الجديد عمر بن الخطاب قد قرر أمراً خاصًا بهم:

عزل خالد:

رأى عمر أن يُعْزَل خالد من قيادة الجيش، وأن يتولى القيادة أبو عبيدة

ابن الجراح، وذلك عن اجتهاد منه، لا عن موقف شخصي من خالد.

وتبدأ هنا مواقف من أعظم مواقف خالد، لقد صدر القرار بجعله واحداً من جند المسلمين بعد أن كان القائد فهل يؤثر هذا على موقفه؛ وكيف يؤثر؟ وهل يُقاتل خالد من أجل منزلة أو مكانة في الحياة الدنيا؟ أو أن يُقال عنه إنه قائد؟ وهل يسعى لنيل مكسب من مال أو غيره من قيادته لجيوش المسلمين؟.

كل هذه الأسئلة لم يكن خالد ليفكر فيها؛ ذلك أنه إنما يُقاتل لهدف واحد، هو إرضاء ربه، فما يهمه إن كان هو القائد أو أحد المسلمين المقاتلين، إنه يخبر أبا عبيدة بالأمر ويستمر في القتال دون أي اعتراض.

حديث مع قائد جيش الرومان:

كان «جرجة» هو قائد جيش الروم يوم اليرموك بتكليف من باهان، ولأنه عاش مع العرب لسنوات في الشام، فلقد سمع عن انتصارات خالد وشجاعته، وبعد أن دارت المعركة نادى:

«ليخرج إليَّ خالد».

فخرج إليه، وجعل مكانه أبا عبيدة بن الجراح، وتقابلا بين الصفين، حتى تلاقت أعناق جواديهما وقد تأكد كل منهما أن الآخر لن يغدر به، فقال جرجة:

« يا خالد، اصدقني ولا تكذبني فإن الحُرَّ لا يكذب، هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تَسُلُّه على قوم إلا هزمتهم؟ ».

فيجيبه خالد:

« إنَّ الله عز وجلَّ بعث فينا نبيه – ﷺ – فدعانا، فَنَفَرْنا عنه، ثم إنَّ بعضنا صدّقه وتابعه، وبعضنا باعده وكذّبه، فكنتُ فيمن كذّبه وباعده وقاتله، ثم إنَّ الله أخذ بقلوبنا ونواصينا؛ فهدانا به، فتابعناه. فقال – يقصد الرسول ﷺ –: أنت سيفٌ من سيوف الله سله – حارب به المشركين.

قال جرجة:

« صدقت.. أخبرني إلى أي شيء تدعوني؟ ».

خالد يدعو جَرَجَة إلى الإسلام:

القائد الروماني يريد أن يستمع إلى هذه الكلمات مباشرة من فم خالد يسأله عما يريد منه فيقول له خالد:

« إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله، والإقرار بما جاء من عند الله ».

فقال جَرَجَة:

«فمن لم يجبكم؟».

فيرد عليه خالد:

«فالجزية» وهو ما يدفعه الذين لا يريدون الدخول في الإسلام من مال مقابل دفاع المسلمين عن بلادهم.

فيعود جَرَجة إلى السؤال من جديد:

«فإن لم يعطها؟».

يسأله جَرَجَة عن موقف الذي يرفض الإسلام، ولا يريد أن يدفع الجزية فيقول خالد.

«نُؤذِنُه بالحرب؛ ثم نقاتله».

يا له من موقف!.

في ميدان المعركة، حيث يستعد كل جندي من الفريقين الروم أو المسلمين لمحاربة الآخر، يتوقف قائد الروم عن الحرب ويسأل عن الإسلام. متى..؟ وقد بدأت الحرب؟! نعم.. ويتوقف خالد، ويسمع في صبر المؤمن إليه، ويجيبه بهدوء الداعية إلى الله في هذا الموقف الشديد، لا ينسى خالد أنه داعية، وأن الله يهدي لنوره مَنْ يشاء، وأنه لا يريد بحربه مع الروم إلا

الدعوة إلى الدخول في دين الله، وهو الخير كل الخير لهم، ولو أنهم أعملوا عقولهم، وفكروا جيداً بها لأراحوا أنفسهم من مشقة محاربة المسلمين. أقبل عليه خالد فأجاب على جميع أسئلته في صبر وهدوء الذي يريد به الخير، فما كان من جَرَجَة إلا أن قال:

«هل للذي دخل في دينكم اليوم يا خالد مثل ما لكم من الأجر والثواب المدخر عند الله؟».

إسلام جَرجَة:

فقال جَرَجَة: «بالله لقد صدقتني، ولم تخادعني، وتحسن لي القول حتى أُسْلِم؟» إن جَرَجة الذي تدرج في المناصب حتى تولى قيادة جيوش الروم الآن يجيد التفكير بعقله، وهو حينما يستمع إلى كلمات خالد المبسطة عن الإسلام، يقتنع، ويزداد اقتناعه بعدما يستحلف خالداً أن يكون الذي قاله الصدق، وتظهر في كلماته شدة حرصه على ما بعد الدنيا، وقد وصل إلى أعلى المناصب فيها، إن نفسه الحائرة لتجد في الإسلام ما يرتفع بها عن متع ومناصب الدنيا الزائلة، فيقول:

«علمني الإسلام»(١)

(١) تاريخ الطبري – جـ٣ – ص ٣٣٩، ٤٠٠.

سبحان الله؛ قائد جيش الروم يُسلِم! ومتى يهدي الله قلبه إلى الإيمان؟ في يوم المعركة، ويأخذه خالد إلى خيمته، فيغتسل، ثم يصلي ركعتين، بعدما يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وعادا معاً إلى المعركة، قائد المسلمين وقائد الروم يقاتلان في صف واحد. حقاً إن الهدى هدى الله.

شدة هجوم جيش الروم على المسلمين:

ولكن جنود الروم حينما رأوا جرجة في صفوف المسلمين الأمامية ظنوه في حاجة إلى المساعدة، وكانت جيوش باهان التي هزمت خالد بن سعيد في بداية المعارك قد وصلت فأصدر أوامره بالهجوم الشديد على المسلمين، وعلى قدر ما كان جرجة رجلاً عظيم العقل، رقيق النفس، كان باهان رجلاً قاسيًا غليظاً، فقد طلب رؤية خالد فخرج إليه فقال باهان:

«علمنا أنه لم يخرجكم من بلادكم إلا الجهد والجوع.. فإن شئتم، أعطيتُ كُلَّ واحد منكم عشرة دنانير، وكسوة، وطعامًا، وترجعون إلى بلادكم، وفي العام القادم أبعث إليكم بمثلها».

فأجابه خالد الجواب المناسب حينما قال له:

«إنه لم يخرجنا من بلادنا الجوع، ولكننا قوم نشرب الدماء، وقد علمنا أنه لا دم أشهى ولا أطيب من دم الروم، فجئنا لذلك»(١).

(١) رجال حول الرسول – خالد محمد خالد – ص ٣٢٠، ٣٢١.

واشتد هجوم الروم حتى ليكاد المسلمون أن يتركوا أماكنهم، وهنا بدأت سلسلة من مواقف أتباع محمد ﷺ، فهاهو خالد يثبت في مكانه رافعاً الراية وهو يصيح:

«الله أكبر.. هُبِّي رياح الجنة».

إنها العزيمة، إنها رياح الجنة تهب على الذين يريدون الاستشهاد في سبيل الله.

موقف رجل غير معروف من المسلمين:

ولأن جميع أتباع الرسول ﷺ في ساحة المعركة أبطال، فإن الروم حين هجموا بأعدادهم الكثيرة على المسلمين، اشتد ثبات المؤمنين وصار كل واحد فيهم بطلاً تتحرك الجبال من أماكنها ولا يتحرك، وهم متمسكون بكلمات قائد هذه المعركة، فلا مجال للفخر، وإنما على كل واحد منهم أن يخلص في جهاده لله، فهذا أحد المسلمين؛ لم تَرْوِ لنا كتب التاريخ اسمه يقترب من أبي عبيدة بن الجراح والقتال على أشده فيقول له:

«إني قد عزمتُ على الشهادة، فهل لك حاجة». أي: رسالة إلى رسول الله ﷺ أبلغها له حين ألقاه.

هو يريد أن يكون عمله وجهاده لله وحده، ويعلن عن صدق رغبته في

الشهادة، فيحتفظ بهذا السر، ولا يخبر به سوى أبا عبيدة، وفي اختصار رائع يسأله، هل يريد أن يوصل رسالة إلى الرسول ﷺ، فلقد صدق العزم على لقائه في الجنة، فيجيب أبو عبيدة في كلمات شديدة التأثير:

«نعم .. قُلْ له: يا رسول الله، إنا قد وُجدنا ما وعدنا ربنا حقاً».

ويندفع الرجل وسط الروم مثل السهم المقذوف، بين الأهوال مشتاقاً إلى قرب الرسول ﷺ في الفردوس الأعلى من الجنة، يضرب بسيفه من يقابل من جنود الروم، فتمتد إليه سيوفهم لتقتله حتى ينال الشهادة(١).

أما عكرمة الصحابي الذي علَّم الدنيا الثبات بعدما تراجع خالد بن سعيد في بداية معارك المسلمين مع الروم في عهد أبي بكر فإنه وقف يشاهد دخول جرجة في جيش المسلمين في فرحة، ثم رأى شدة هجوم الروم، فاغتاظ، وأقبل على قتالهم قتال الظامئ إلى الماء البارد، وكان موقع مجموعته أمام خيمة القائد خالد(٢)، فما كان منه إلا أن نزل من فوق حصانه، وكسر غمد – مقبض – سيفه، علامة على شدة رغبته في قتال الأعداء قتال المستميت، فهو لم يجعل لسيفه مقبضاً يمسكه به، بل هو يحارب ويمسك بجسم السيف، ولم يكتف بهذا بل أخذ يتوغل في جيش

(١) رجال حول الرسول – خالد محمد خالد – ص ٣٢١.

(٢) الصديق أبو بكر – محمد حسنين هيكل – ص ٣٠٩.

الروم فمن الذي خاف عليه وذهب إليه؟ إنه القائد. يقول له خالد:

«لا تَفْعَلْ يا عِكْرِمة فَإِنَّ قتلك سيكون شديداً على المسلمين».

إن عكرمة قائد جماعة من المسلمين فيها ألف مقاتل، كيف يكون حالهم حينما يفارقهم، فيجيب عكرمة في حزم على كلمات القائد:

«إليك عني يا خالد، فلقد كان لك مع رسول الله ﷺ – سابقة – أي: موقف عظيم، أمَّا أنا وأبي فقد كنا من أشدِّ الناس على رسول الله ﷺ، فدعني أُكَفِّر – أعوض – عما سلف مني، لَقَدْ قاتَلْتُ رسول الله – ﷺ – في مَوَاطِنَ كثيرة، وَأَفِرُّ – أهرب – من الروم اليوم؟! إنَّ هذا لنّ يكون أبداً».

إنه يعلنها، لن يهرب أو يتراجع عن محاربة الروم اليوم، فلقد جاء الوقت الذي كان ينتظره كي يُرِيَ الله منه موقفاً شديد الإخلاص، ثم يُعلي صوته، فيطلق دعوته الخالدة:

«مَنْ يَبَايعُ – يعاهد – على الموت؟»[1].

قال كلماته وفتح يده اليمنى فعاهده عُمُّه الحارثُ بن هشام، وضرار بن الأزْور في أربع مئة من المسلمين، أخذوا يدافعون عن مقر القيادة – فسطاط خالد – في استماتة وثبات.

(١) صور من حياة الصحابة – جـ٢ – د. عبد الرحمن رأفت الباشا – مؤسسة الرسالة.

مشهد رائع:

وبعد نهاية المعركة وقف الصحابة الكرام يشاهدون أحداث هذا الموقف الرائع:

فقد وجد الصحابة عكرمة شهيداً على أرض المعركة وكان إلى جواره أخ له ليس من أبيه وأمه، وإنما هو أخوه في الله واسمه الحارث بن هشام، وأيضاً كان يتمدد على أرض اليرموك شهيد ثالث هو عياش بن أبي ربيعة، وجدهم الصحابة في النزع الأخير – الأنفاس الأخيرة قبل الوفاة – فلما اقتربوا من الحارث طلب أن يشرب قليلاً من الماء، فلماء جاؤوا له بالماء، وأراد أن يشرب نظر إليه عكرمة، فقال الحارث:

« ادفعوه إليه ».

يأمرهم بأن يسقوه قبله، فهو يُؤثِر أخاه على نفسه، وأراد الصحابة الكرام أن يسقوا عكرمة ولكنهم حينما اقتربوا منه نظر إليه عياش، فقال عكرمة:

« ادفعوه إليه ».

ولم يكن عكرمة بأقل إيثاراً من الحارث الذي فضله على نفسه فعكرمة هو الآخر يُفضِّل عياشًا على نفسه، وهو يراه مثله في النزع الأخير، وينظر

إلى الماء، وكأنه يشتهي أن يشرب، فقرب الصحابة الماء إلى عياش فوجدوه قد فارق الحياة، فعادوا إلى عكرمة فوجدوه كذلك، فعادوا إلى الحارث فوجدوه أيضاً قد استشهد.

فهل شاهدت الدنيا من قبل مثل هذا الموقف؟ وهل رأت مثل أصحاب الرسول ﷺ؟ هل رأت مثلهم في شدتهم على عدوهم في ساحة المعركة؟ هل رأت مثلهم في رحمتهم ببعضهم بعضاً؟.

اشتداد المعركة:

أما الذي كان من أمر عكرمة قبل استشهاده، فإنه حينما اجتمع هو وأصحابه الأربع مئة الذين بايعوا على الموت، وعاهدوا الله، وهجموا على جزء من جيش الروم هجوماً شديداً، وقد أنعم الله عليهم بالشجاعة والثبات، ولكأنهم قد أبصروا مواقعهم من الجنة وما أعد الله لهم من نعيم، فأخذوا يستبسلون ويقاتلون قتال المستميت الذي يحارب وليس في نفسه أقل رغبة في الحياة، بينما يحارب عدوه، ونفسه ممتلئة بحب الحياة، والرغبة فيها، وأثرت هجمة عكرمة، وأصحابه في جيش الروم، فتراجعوا.

خالد يأمر جيش المسلمين بالتقدم:

هنا جاء أمر القائد المسلم، جاء أمر خالد بأن يتقدم جيش المسلمين

كله، فيهاجم الروم، فلما رأى الروم اشتداد هجمة المسلمين عليهم لم يتراجعوا، وإنما لاقوا هجوم المسلمين بهجوم ليس أقل منه عنفاً.

أدرك المسلمون أن لا مهرب لهم في هذا الموقف الشديد إلا بالنصر، فإن لم يحدث فإن عدوهم سوف يقضي عليهم، فازدادوا إيمانًا بالله، وكان لهم في موقف عكرمة وأصحابه القدوة، فاندفعوا يقاتلون في ضراوة، وفي مقدمتهم خالد لا يترك أحداً من الروم يقترب منه إلا واختطف روحه.

اشتراك نساء المسلمين في المعركة:

وبلغ حماس المسلمين أقصى مدى حتى إن نساءهم قد اشتركوا في المعركة، وقاتلن، وكان لجويرية ابنة أبي سفيان مواقف عظيمة[1].

ورأى خالد أن الهجوم الشديد على جزء آخر من جيش الروم غير الجزء الذي هجم عليه عكرمة وأصحابه سوف يضعف من قوتهم، ويعجل بنهاية المعركة؛ لذا أسرع ومعه مئة فارس فقط بهجوم على ميسرة جيش الروم، وعددهم أربعون ألف جندي وخالد يصيح في أصحابه:

والذي نفسي بيده ما بقي من الروم من الصبر والجلد – التحمل – إلا ما رأيتم، وإني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم – يقصد الانتصار عليهم.

(١) الصديق أبو بكر: محمد حسنين هيكل – ص ٣٠٥، ٣٠٦.

يحمس أصحابه فيقسم لهم بأن قدرة الروم على القتال قد بلغت من الضعف فلم يعد لديهم القدرة على المواصلة، وهو يرجو أن يمنحهم الله النصر عليهم، ولكن هل يتوقع أن يهزم مئة مقاتل فقط أربعين ألف مقاتل؟(١).

نعم، وكان تأثيرهم في جيش الأعداء عظيمًا، أليسوا من جند المسلمين ويقودهم خالد. لقد استطاع خالد أن يصل إلى قلب جيش الأعداء، وصار يقاتل حتى تمكن من أن يفصل بين الخيل والمشاة الذين يقاتلون على أقدامهم، واستمر القتال طوال النهار، حتى إذا جاء آخره ظهر على وجه الروم التعب الشديد، ولكنهم يجدون أن النهر من ورائهم، والمسلمون من أمامهم، فلا طريق إلى الهرب لديهم.

انهزام الروم :

لقد رأى خالد أن هرب الفرسان سوف يؤثر على المشاة، فلن يستطيعوا الاستمرار في القتال، وبالفعل أمر أصحابه، فأَفْسحوا لهم، فاستطاع فرسان الروم الهرب، وهنا هجم المسلمون بشدة على مشاة الروم، فتراجعوا، ولم يتمالكوا أنفسهم، وكانت وراءهم هاوية، فوقعوا فيها. وقيل: إن الذين

(١) رجال حول الرسول – خالد محمد خالد – ص ٣٢٢، ٣٢٣.

قتلوا في ذلك اليوم يزيدون على مئة ألف جندي من الروم. وقُتل «تذارق» أخو هِرَقل قيصر الروم كما قتل عدد كبير من أمراء جيشهم إلا الذين استطاعوا الهرب، وتمت هزيمة الروم، ودخل المسلمون معسكرهم، وغنم المسلمون كل ما فيه، وحينما قسمت الغنائم، نال كل جندي مسلم منها نصيباً عظيماً، ونظر خالد إلى ساحة المعركة التي كانت مليئة بجنود الروم، ففرغت فلا يُسمع فيها صوت، فلم يملك نفسه من أن يسجد لله شكراً على ما أنعم به عليه.

شهداء المسلمين:

ولم يكن عدد قتلى المسلمين في هذه المعركة قليلاً، إذ بلغ عدد الشهداء ثلاثة آلاف وفيهم كبار الصحابة، وذوي المكانة، ولكن نتيجة المعركة كانت خطيرة حتى إنه يروى أن خبر هزيمة الروم حينما وصلت إلى حاكمهم في حمص أسرع فهرب منها خوفاً من المسلمين الذين يقفون على الحدود بين الأردن وسوريا اليوم، هرب دون تفكير خوفاً منهم، لأن الطريق أمامهم صار مفتوحاً[1].

إنه يعلم جيداً أن البلد الذي تنتشر فيه دعوة الإسلام لا تعود إلى أمثاله قط، وهل كانت المعركة التي أمر بها إلا من أجل منعهم من نشر دعوة الحق؛

(١) سيف الله – خالد بن الوليد – حديوي حلاوة – ص ١٠ مكتبة الدار العربية للكتاب.

لأنه يرى أن الطريق إلى حمص قد أصبح ممهداً أمام المسلمين، ولذلك تعتبر هذه المعركة هي الحاسمة التي أخذ بعدها المسلمون بلاد الشام كلها[٢].

وبعد نهاية المعركة ذهب خالد إلى أبي عبيدة مسلماً القيادة في هدوء له، فشكره أبو عبيدة وقبله بين عينيه تقديراً منه لعظم دوره في الحرب، ولحسن خلقه، وعظمة نفسه.

أما عن عزل عمر بن الخطاب الخليفة الجديد له فإنه لم يكن إلا عن حرصه على ألا تُفْتَن الناس بانتصارات خالد الذي لم يهزم في حرب من خلال ست عشرة غزوة غزاها، على أن هذا لم يمنع استمرار خالد في الفتوحات جندياً يشير على القادة، ويملك حق المشورة لهم، فيحقق الله على يديه عظيم النفع للمسلمين، ويستمر خالد صاحب الرسول ﷺ، وقائد جيوش النصر في ذات السلاسل، واليرموك، في صفوف المسلمين ومتى كان قاهر الروم ومدمر الفرس يهتم بمكانته في الصفوف، ومتى كان المسلمون يهتمون بالرتب؟! ويستمر جهاد خالد، وتستمر فتوحات المسلمين.

obeikandl.com

المحتويات

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول	
بداية معارك الروم مع المسلمين	٥
الفصل الثاني	
أبو بكر يصمم على محاربة الروم	١٣
الفصل الثالث	
حروب المسلمين مع الروم	١٥
الفصل الرابع	
المعركة	٣٥

obeikandl.com